

الفصل الثالث

الوعد المقدس

إبراهيم أب العرب وأب الأنبياء جميعاً ، وهو إبرام قبل أن يدعى إبراهيم بأمر الرب^(١) ، ولد في أور الكلدانيين ونشأ بها ونزح منها مع أبيه وابن أخيه لوط إلى حاران^(٢) حتى عبر منها بأمر الرب إلى كنعان^(٣) فدعى بالعبري ودعى قومه بالعبريين وظل إبراهيم يتجول في أرض كنعان غريباً فيها وانحدر منها إلى مصر حين أصابت البلاد مجاعة ونال فيها خيراً « فصار له غنم وبقر وحمير وإماء وأتن وجمال »^(٤) ثم صعد من مصر إلى أرض كنعان إلى حيث أقام مذبح الرب ونصب خيمته في البداية بين بيت أيل وعام^(٥) .

وكان أول وعد الرب لإبراهيم حين أمر بالعبور إلى كنعان « وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه . وتبارك فيك جميع قبائل الأرض »^(٦) .

(١) تكوين ١٧ : ٥ .

(٢) تكوين ١١ : ٢٧ - ٢٩ .

(٣) تكوين ١١ : ٣١ ، ١٢ : ١ - ٩ .

(٤) تكوين ١٢ : ١٦ .

(٥) تكوين ١٣ : ٣ .

(٦) تكوين ١٢ : ١ - ٢ .

وحق وعد الله فكان من نسل إبراهيم أمة هي أمة العرب كما كان بنو إسرائيل بعض نسله ، وكان منه الأنبياء والرسل ، وبورك اسمه في كل دين ، ومن رسالته أملت كل رسالات السماء ، اليهودية والنصرانية والإسلام .

ولم يلعن من آل إبراهيم غير اليهود فقد ضلّوا هديه ، وامتهنوا رسالته ، وحوروها عنصرية هوجاء مأكرة ، فاستباحوا فيها كل فضائل البشر .

ثم كان وعد الرب لإبراهيم بالأرض التي هو عليها وكانت أرض كنعان ، فلسطين ، وكان هذا أول وعد بأن تكون فلسطين لذرية إبراهيم . « وظهر الرب لإبراهيم وقال لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له^(١) .

والمعنى واضح في « نسلك » فإنها تشمل كلّ نسل إبراهيم لا بعضه كما يريد اليهود لها أن تكون .

وكان هذا الوعد قبل أن يرزق إبراهيم ولداً أو ذرية ولم يكن إسماعيل وإسحاق قد ولدا بعد .

وتكرر الوعد قبل مولدها أيضاً وكان ذلك حين اعتزل إبراهيم لوطاً واختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل شرقاً . واعتزل كلاهما الآخر . إبراهيم سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم « وقال الرب لإبراهيم بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد . واجعل نسلك كتراب الأرض . حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد . قم امش في الأرض طولها وعرضها لأنّي لك أعطيها . فنقل إبراهيم

(١) تكوين ١٣ : ٧ .

خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون . وبني هناك مذبحاً للرب^(١) .

وفي هذا الوعد تخرج كل دائرة الأردن شرقاً من أرض الميعاد ويقف الوعد بأرض الميعاد عند حدود الأرض التي يراها إبراهيم في جهاتها الأربع .

وحين بشر إبراهيم بالإرث لنسله ولمن « يخرج من أحشائه^(٢) » كان إسماعيل أول من ولد له بعد ما طلبت منه زوجته سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها نسل بعد أن ظلت عقيماً ، وجاء الوعد بهذا الإرث محدداً « في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . القينيين والقفزيين والقدمونيين . والحيشيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين^(٣) .

واقتران الوعد هنا بولد إسماعيل أو البشرى بولده وبالإرث لإبراهيم من صلبه يعنى أن الوعد كان لإسماعيل والإرث له فإذا عم الإرث أبناء إبراهيم جميعاً فمعنى ذلك أنه ليس لإسحق أو لنسله من يعقوب أو (إسرائيل) وحدهم بل هو للعرب أيضاً وهم نسل إبراهيم .

وفي رواية التوراة مصداق ذلك وتوكيد له ففي الكثرة التي يشير بها الرب إلى نسل إبراهيم ما ينطبق على نسل إسماعيل دون نسل إسحق ، فقد أصره أبناء إسماعيل إلى أبناء أخيه إسحق حين تزوج عيسو شقيق يعقوب وابن إسحق من محلة ابنة إسماعيل أما يعقوب فقد أصره إلى أبناء

(١) تكوين ١٣ : ١٤ - ١٨ .

(٢) تكوين ١٥ : ٤ .

(٣) تكوين ١٥ : ١٨ - ٢٠ .

خؤولته من الكلدانيين وبعدت نسبة الإِراث من إبراهيم إليه بينما اقتربت بزواج عيسو بن إسحق من محلة ابنة اسمعيل .

واجتمع في نسلها أكثر أبناء إبراهيم وكانوا هم الكترة وأبناء يعقوب وهو إسرائيل القلة وكانت كثرتهم مصداق ما بشر به الرب إبراهيم « وقال إبراهيم أيضًا إنك لم تعطى نسلًا وهو ذا ابن بيتي وارث لى . فإذا كلام الرب إليه قائلاً . لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه إلى خارج . وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها . وقال له هكذا يكون نسلك^(١) » .

ثم دخل إبراهيم بهاجر لتلد له بكره اسمعيل ويقرن هذا الوعد بمولده ويكثر أبنأؤه حتى يصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الرب وتكون منهم أمة العرب التى امتدت وملأت بقاع تلك الساحة الرحبية التى تعرف بالعالم العربى اليوم ، وذهب أبناء إسحق من الإسرائيليين قلة ، بدداً فى كل صقع من أصقاع الأرض .

وكان عهد الحتان ، ختان اسمعيل ، ولم يكن إسحق قد ولد بعد ، ولا يمكن أن ترتبط النبوءة بمن كان فى ضمير الغيب لا يعلم عنه أبوه شيئاً ولا تعلم أمه سارة أن الله سيفك عسرتها ويأسو عقمها لتلد إسحق وقد نيف اسمعيل على الثالثة عشرة من عمره « ولما كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبراهيم وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً . فاجعل عهدي بينى وبينك وأكثر كثيراً جداً . فسقط إبراهيم على وجهه . وتكلم الله معه قائلاً . أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم ؛ لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم . وأثمر كثيراً جداً وأجعلك

(١) تكوين ١٥ : ٣ - ٥ .

أَمَّا وملوك منك يخرجون . وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبدًا لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبدًا ، وأكون إلههم»^(١) .

ثم يعاهده الله على الختان « هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم ، وليد البيت والمبتاع بفضه من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانًا وليد بيتك والمبتاع بفضتك ، فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبدًا . وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدي»^(٢) .

وفي عهد الختان هذا ، يبشر الله إبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق « وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنا . أباركها فتكون أمًا وملوك شعوب منها يكونون»^(٣) .

ونرى من سياق الوعود والعهود ، أن الوعد بأرض كنعان لنسل إبراهيم قد سبق بشراه تعالى لإبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق ، ثم كان عهده بعد ذلك لأبناء سارة « أباركها فتكون أمًا وملوك شعوب منها يكونون » ما يؤكد أن عهد الختان كان لإسماعيل وحده وإلا ما كان هناك عهد جديد لإسحق إذا كان عهد الختان يشمل ذرية إبراهيم جميعًا من ولد

(١) تكوين ١٧ : ١ - ٨ .

(٢) تكوين ١٧ : ١٠ - ١٤ .

(٣) تكوين ١٧ : ١٥ - ١٦ .

ومن لم يولد بعد من هاجر أو سارة أو قطورة ، وإن كانت كلمة نسل لا تعنى التحديد والتخصيص بل الجمع والشمول .

ولا يمكن القول بأن ولادة إسحق قد مسّت حقّ إسماعيل أو أن ارتحال هاجر بولدها إسماعيل عن أرض كنعان نحو الجنوب قد حرّمه من إرث النبوءة أو الوعد أو نسخ عهد الحثان ، فإن كان الرب قد استجاب لسارة ففى التفريق بينها وبين هاجر لا فى حرمان إسماعيل من إرث أبيه إبراهيم « ورأت ساره ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح ، فقالت اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق ، فقيح الكلام جدًّا فى عيني إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك^(١) » .

والمعنى واضح فى ثبوت حق الغلامين قبل إبراهيم فكلُّ منهما سيكون له نسل ينسب إلى أبيهما إبراهيم أما إسماعيل فقد تميّز بأن سيكون من نسله أمة وتعنى الجمع أو الكثرة ثم نسبة هذه الأمة إلى إبراهيم لأنه نسله ، وأما كلمة النسل فتعنى التحديد أو القِلّة ، وقد كان من إسماعيل أمة هى أمة العرب وكان من إسحق نسل هم بنو إسرائيل .

ولا تعرض إشارة الرب فى تلك الآيات إلى أرض الميعاد التى وعد الرب بها إبراهيم من قبل بل ولا يتكرر الوعد بعد ذلك فيما تلا من حياة إبراهيم ، وظلّ عهد الحثان جاع الوعد المقدس بأرض الميعاد . وقد ادعى الإسرائيليون من أبناء إسحق بعد ذلك أن ذرية إبراهيم

(١) تكوين ٢١ : ٩ - ١٧ .

تعنيهم وحدهم مع أن الختان الذى عقد عليه العهد بين الرب وإبراهيم كان ختان إسماعيل ، لا إسحق .

ولم يحدث تفريق بين إسماعيل وإسحق حين مات إبراهيم فقد اشتركا معاً فى دفنه « ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثي الذى أمام مرا »^(١) . ولما ذكر سفر التكوين أبناء إسماعيل ذكر بعدهم أبناء إسحق^(٢) .

ويغفل العهد القديم بعد ذلك ذكر إسماعيل إلا أنه لا يذكر فى أى سفر من أسفاره بعد ذلك ما يفيد أو يشير إلى حرمان إسماعيل أو ذريته من عهد الرب مع إبراهيم كما لا يذكر العهد القديم بعد ذلك أيضاً ما يفيد حرمان إسماعيل من عهد الرب مع إبراهيم وكل إشارة إلى إسرائيل بأرض الميعاد جاءت قرينة العهد الذى عاهد الرب عليه أباهم إبراهيم فقد كانت كلها من قبيل التذكير بوعد الرب لإبراهيم وذريته وكانت جميعاً قاصرة على أرض الكنعانيين وجيرانهم من الحثيين والفرزيين واليبوسيين^(٣) ولم يرد ما يشير إلى تخوم أرض الميعاد وامتدادها من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات إلا إشارات مبهمة تصعد حيناً إلى لبنان وأحياناً إلى قادش والأردن وبحور وأنهار مجهولة وحين أشير إلى نوع من الحدود كانت تلك الحدود من « بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر »^(٤) وهى حدود لا شك غامضة .

ولا نجد فى سفر التكوين ما يشير إلى وعد من الرب لإسحق بأرض الميعاد بل حين ظهر له الرب بعد سنين من وفاة إبراهيم لم يمنحه غير

(١) تكوين ٢٥ : ٩ .

(٢) تكوين ٢٥ : ١٢ - ٢٦ .

(٣) خروج ١ : ٢ - ٣ .

(٤) خروج ٢٣ : ٣١ .

البركة » فظهر له الرب في تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأنى معك وأباركك وأكثر من نسلك من أجل إبراهيم عبيدى «^(١) ولم يزد الوعد ليعقوب عن الأرض التى هو مضطجع عليها » فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان . ورأى حلما وإذا سلم منصوبه على الأرض ورأسها يمس السماء . وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق . الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض^(٢) . « . ولا يفيد الامتداد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً نوعاً من التملك بل قد لا يعدو معنى الرحيل ، أما كثرة النسل فهى كثرة نسبية فإن الإسرائيليين كانوا على الدوام قلة إذا قيسوا بذرية إبراهيم من إسماعيل ومن أبنائه الآخرين الذين أصهروا إلى الإسماعيليين ، وليس لمسيحي أو مسلم أن ينكر بركة إسرائيل فقد تقدس إبراهيم وكل ذريته فى المسيحية والإسلام . ويتكرر الوعد مرة أخرى ليعقوب فى صورة تكاد تكون محدّدة ولكنها لا تعنى حرمان غيره من ذرية إبراهيم من إرث أبيهم » وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض^(٣) » فإن يعقوب نفسه حين حضرته الوفاة لم يسوّ بين أبنائه فى نوال بركته وجعل لكل منهم وهم الذين عرفوا بأسباط إسرائيل

(١) تكوين ٢٦ : ٢٣ - ٢٤ .

(٢) تكوين ٢٨ : ١٠ - ١٤ .

(٣) تكوين ٣٥ : ١١ - ١٢ .

الاثني عشر من بركته على قدر ما رأى فيهم^(١) .

وحين اختار الله موسى نبياً لبني إسرائيل ليقودهم من مصر إلى أرض كنعان وهو من نسل لاوى من يعقوب ، وكان يعقوب قد حرم ابنة لاوى من بركته « شمعون ولاوى أخوان . آلات ظلم سيوفها . في مجلسها لا تدخل نفسى . بجمعها لا تتحد كرامتى لأنها في غضبها قتلا إنسانا وفي رضائها عرقبا ثورا . ملعون غضبها فانه شديد وسخطها فإنه قاس . أقسمها في يعقوب وأفرقها في إسرائيل^(٢) » . ولا نجد تفسيراً لحرمان لاوى من بركة أبيه ثم تكون الرسالة بعد ذلك في عقبه أمّا وأباً . « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى . فحبلت المرأة وولدت ابناً^(٣) » وكان هذا الولد موسى كما تجرى الرواية بذلك ، ولا نجد تفسيراً لحرمان لاوى من بركة يعقوب ثم انتهاء البركة إليه بولادة موسى ، إلا أن يكون بعض ما جاء على لسان يعقوب قد حرف تحريفاً شديداً ، بل إن هناك من يقول إن وعد الرب ليعقوب بوراة إبراهيم وإسحق كان لتبرير اغتصاب يعقوب بحيلة أمه لحق أخيه عيسو .

ثم إن موسى نفسه في رحيله إلى مدين (مديان) فأراً من وجه فرعون قد أصهر إلى كاهنها يثرو وهو رجل عربي عرف في التوراة باسم « يثرون » وفي القرآن باسم شعيب وإلى يثرو يعزى أكثر ما نال موسى من نجاح . فإذا كانت هناك بركة لإسرائيل أو إرث ، فقد شارك فيها عربي من غير إسرائيل بل لعله من ذرية إبراهيم أولاد قطورة الذين ارتحلوا جنوباً أو من نسل مديان بن إبراهيم من قطورة بالذات .

(١) تكوين ٤٩ : ١ - ٣٣ .

(٢) تكوين ٤٩ : ٥ - ٧ .

(٣) خروج ٢ : ١ - ٢ .

ولما تجلّى الرب لموسى فى طور سيناء وحمله رسالة الخروج بإسرائيل من أرض مصر إلى أرض كنعان لم يرد فى كلام الرب ما يفيد أن الصعود إلى أرض كنعان كان يعنى ملكيتهم لها ، بل كان الصعود للتحرر من استعباد المصريين لهم والخلاص من ظلمهم » أما موسى فكان يرمى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى . فقال هأنذا . فقال لا تقترب إلى ههنا . اخلع حذاءك من رجلك . لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة .

ثم قال أنا إله أبليك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . إني علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً . إلى مكان الكنعانيين والحيتيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين^(١) . فإذا تتبعنا ما جاء من تذكير الرب لموسى وقومه بأرض الميعاد نجد أن

(١) خروج ٣ : ١ - ٨ .

- لعل من المناسب فى هذا المقام أن نذكر ما جرت به آيات القرآن عن ذلك : (وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجود على النار هدى . فلما أتاه نودى ياموسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .) (طه : ٩ - ١٥) .

المعنى يختلف عما أراد بنو إسرائيل من تفسير الوعد تفسيراً مادياً يقوم على التملك والإرث ولا شيء سواهما ، بينما الدلالة بينة على معنى آخر . هو القداسة والكهانة وطاعة الرب والإرث للطاعة وليس الإرث لمن يضل كائناً ما كان شأنه في بني إسرائيل . فالقداسة هي قداسة الله الواحد الأحد والكهانة هي خدمة الله في محاريبه والقيام على وصاياه وتعاليمه والإرث في نعم الله هي لمن يطيع الله في أوامره ونواهيه ، وقد كانت الرسالة لإبراهيم في ذريته ومات عنها وبركته مشاع بين بنيهِ ، فلما حملها إسحق من بعده كان يجب أن تكون بركته لبكره عيسو دون يعقوب ، ولكن أمهما رفقة كانت تحب يعقوب أكثر مما تحب عيسو احتالت حتى تحل البركة في يعقوب بدل عيسو « وحدث لما شاخ إسحق وكَلَّتْ عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بني . فقال هاأنذا . فقال إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاقي . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً . واصنع لى أطعمة كما أحب وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه . فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاقي . فالآن يا بني اسمع لقولى فيما أنا أمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديدين جيّدين من المعزى . فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب . فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته »^(١)

وتمضى الرواية فتقول إن يعقوب خشى أن يكشف أبوه حيلته فتحلّ به

(١) تكوين ٢٧ : ١ - ١١ .

اللجنة بدل البركة ولكن رفقة شجعته وطمأنته وأعدت له من ثياب عيسو ما يخفيه ومن سمة التنكر ما يجعله شبيهاً بعيسو ، ودخل يعقوب على أبيه في هيئته الجديدة فأطعمه ونال بركته ولم يكن عيسو قد آب من صيده^(١) . فالإرث هو إرث البركة أو الرسالة وليس إرث الأرض ، والأرض للمؤمنين من عباد الله والاختيار لمن اختارهم الله لعبادته ، وقد اختار الله بني إسرائيل من ذرية إبراهيم لتكون رسالة إسحق ويعقوب وموسى إليهم ، حتى إذا حلت الرسالة في المسيح عيسى بن مريم نسخت ميزة الاختيار عن إسرائيل وأصبحت الرسالة للناس كافة وأضحى ملكوت الله لكل من عبد الله على الأرض من ذرية إبراهيم أو غير ذريته ، ومريم هى ابنة عمران وينتهى نسب عمران إلى إبراهيم أيضاً ، ثم كانت رسالة محمد للناس كافة فنسخت إلى الأبد حق الاختيار والميزة التى كانت لذرية إبراهيم على غيرهم ولم يعد لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ومحمد من ذرية إبراهيم ينتهى نسبه إلى إسماعيل .

فإذا كان بنو إسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء إليهم وحدهم ، وحين عمّت الرسالة انسحب الاختيار إلى كل من آمن بالله واليوم الآخر إسرائيلياً كان أم مسيحياً أم مسلماً . والمختار هو المختار للرسالة وليس للتمييز أو التفضيل على البشر . أما إبراهيم وذريته فقد ظلّ إرث البركة أو الرسالة فيهم وحدهم حتى محمد آخر الأنبياء وأصبحت أرض البركة أو أرض الرسالة أو أرض الميعاد وهى قدس الأديان السماوية جميعاً ، هى إرث المؤمنين من عباد الله لا إرث إسرائيل وحدها ، وحين خصّ الله بها بني إسرائيل على غيرهم من الكنعانيين والحيتيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين فلائهم

(١) تكوين ٢٧ : ١٢ - ٣٨ .

هم وحدهم من خصهم الله بعبادته في ذلك الوقت ولم يرد الله لأرض قدسه أن تكون لغير المؤمنين فأصعد إليها بنى إسرائيل لتكون لهم أرضاً وسكناً بدل شعوب أو قبائل تعبد الأصنام من دونه تعالى ، وحرّم عليهم عشرة أهلها حتى لا تعدو عليهم الوثنية بعد عبادة الله ، « لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . لا يسكنوا في أرضك لئلا يجعلوك تخطئ إلى . إذا عبدت آلهتهم فإنه يكون ذلك فخاً^(١) »

وأوصاهم الرب بطاعته والخضوع لشريعته فمن ضلّ منهم يقطع من شجرته ويذهب ملعوناً في الأرض « احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيتيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً في وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سوارهم . فإنك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو . احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض . فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم . وتأخذ من بناتهم لبنيك . فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن^(٢) .

وفي اللاويين « بكل هذه لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردتهم من أمامكم . فتتنجس الأرض . فأجتزى ذنبها منها فتقذف الأرض سكانها . لكن تحفظون أنتم فرائض وأحكامي ولا تعملون شيئاً من جميع هذه الرجسات لا الوطنى ولا الغريب النازل في وسطكم . لأن جميع هذه الرجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم فتنجست الأرض فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب

(١) خروج ٢٣ : ٢١ - ٢٣ .

(٢) خروج ٣٤ : ١١ - ١٨ .

التي قبلكم . بل كل من عمل شيئاً من جميع هذه الرجسات تقطع الأنفس التي تعملها من شعبها . فتحفظون شعائري لكي لا تعملوا شيئاً من الرسوم الرجسة التي عملت قبلكم ولا تنتجسوا بها . أنا الرب إلهكم^(١) .

وإذا كان الله قد أنعم عليهم وفضلهم على العالمين فإن نذيره إليهم بالعذاب شديد إن خالفوا وصاياه ، وضلوا عهده . « لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا وإن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقى فأني أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعباً وسلاً وحى تغنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلاً زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهي ضدكم فتتهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم^(٢) .

ويستمر نذير الرب فيقول : « وإذا كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معى بالخلاف . فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطاً وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم خربة .. والباقون منكم ألقى الجبانة في قلوبهم في أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين

(١) لاويين ١٨ : ٢٤ - ٣٠ .

(٢) لاويين ٢٦ : ١٤ - ١٧ .

الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنون بذنوبهم في أرض أعدائكم . وأيضاً بذنوب آبائهم معهم يفنون^(١) .

فوعده الرب لم يكن مطلقاً من كل قيد أو شرط بل العهد على الإيمان والمحبة وطاعة الله واتباع سواء السبيل ، فلما ضلّوا حلّ عليهم العذاب وحاقّت بهم اللعنة فتأهّوا في البرية سنين عددا وحلّ بهم القحط والوباء « في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تدمروا على . لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها ما عدا كالب بن يفتة ويشوع بن نون . وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها . فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر . وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفتي جثثكم في القفر . كعدد الأيام التي نجستم فيها الأرض أربعين يوماً للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي . أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة على . في هذا القفر يفنون وفيه يموتون^(٢) . »

فأرض الميعاد هي لمن آمن بالله واليوم الآخر والإرث فيها للمؤمنين ، والاختيار هو للأرض وليس للشعب . والأرض هي الأرض المقدسة لا تنصب فيها أزلام أو أنصاب لعبادتها من دون الله ، وقد اختار الله من ذرية إبراهيم ليسكنوا تلك الأرض المقدسة لأن الرسالة كانت لإبراهيم ثم للمختارين من ذريته ؛ ولأن الله أراد لتلك الأرض أن تكون مطهرة طهوراً ، فاختار لها المطهرين ولم يكن غير بني إسرائيل في تلك الحقب من حظوا برسالة الرب ، حتى إذا انتقلت الرسالة إلى غيرهم من بطون

(١) لاويين ٢٦ : ٢٧ ، ٢٣ ، ٣٦ - ٤٠ .

(٢) عدد ١٤ : ٢٩ - ٣٥ .

إبراهيم انتقلت إليهم الخطوة وأصبحوا هم المختارين ، وقد ادّعى اليهود الاختيار لأنفسهم فقالوا إنهم شعب الله المختار وكان ذلك حقاً حين لم يكن غيرهم من يعبد الله ولكن الاختيار كان للإيمان برسالة الله ، أما الاختيار الأبدى فهو للأرض المقدسة ، تلك الأرض التى غدت قدساً ومحراباً لكل أديان السماء .

وقد وعد الله ألا يدخل إلى الأرض المختارة من بنى إسرائيل إلا كل من آمن واتقى وعمل صالحاً أما المرتدون فقد أفناهم قبل أن تطأها أقدامهم ، بل إن غضب الرب الذى لحق بهم قد لحق بموسى نفسه فلم يدخل الأرض المختارة ومات وهو على أبوابها . « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيباً . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك : لأن الرب إلهك هو نار آكله إله غيور^(١) » .

فاختيار إسرائيل كان اختياراً موقوتاً بالرسالة فلما خرجت الرسالة منهم زال الاختيار عنهم ، وليس فى عبارة « لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد^(٢) » وهى التى يستند إليها الإسرائيليون دليلاً على أبدية ملك إسرائيل ، ما يفيد معنى الأبدية أو الاستمرار فكلمة « أولام » العبرية لا تعنى إلى الأبد وإنما تحمل معنى القدم وتعنى الزمن الطويل ، هذا إذا أخذنا بتفسير الإسرائيليين لوعده الرب المقدس وأنه لإسرائيل من دون ذرية إبراهيم وليس لكل ذرية إبراهيم .

(١) تثنية ٤ : ٢١ - ٢٤ .

(٢) تكوين ١٣ : ١٥ .

وثمة حقيقة أخرى تبرز من ثنايا المقارنة بين ما وعد الله به إبراهيم في عهد الختان وبين ما وعد به يعقوب وموسى من أنبياء إسرائيل ، ففي عهد الختان تمتد أرض الميعاد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » بينما لم يزد الوعد ليعقوب وموسى وأنبياء إسرائيل على أرض كنعان وما حواليتها من أراضى الحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين مما يقع على ضفتي الأردن أو يمتد أحياناً ليضم بقاعاً من لبنان وفلسطين وبعض بلاد سورية ولكنه لا يشمل كل هاتيك البقاع كاملة . فقد انتشر أبناء إبراهيم وذريته في كل تلك البقاع قبل أن يصعد الإسرائيليون إلى أرض كنعان إلى الغرب من الأردن ، فارتحلت هاجر بولدها إسماعيل إلى الجنوب من برية فاران وتكاثر نسل إسماعيل فكانت منه العرب العدنانية ، وسكن أولاد قطورة فيما يبدو إلى الجنوب من فلسطين وإلى أحد بطونهم أصهر موسى ، أما أبناء عيسو فكان من نسلهم الأدوميون سكان جبل سدير ، غرب العربية أو بلاد العرب ، ولم يبق غير بني إسرائيل من ذرية إبراهيم بعيداً عن الأرض التي وعد الله بها أباهم إبراهيم ، فقد ارتحلوا إلى مصر بأبيهم يعقوب ليقيموا في حمى أخيه يوسف بعد أن أمنة فرعون مصر على خزائنه وأمواله وأقوات شعبه وأصبح له من الجاه والسلطان في حمى فرعون ما لفرعون نفسه . وأقام بنو إسرائيل في مصر زمناً ، اثنا عشر سبطاً لأبيهم يعقوب أو إسرائيل ، وطاب نسلهم وتكاثرت ذريتهم ، ثم استرقهم المصريون وساموهم سوء العذاب ، حتى كتب الله لهم الخلاص على يد موسى فصعد بهم إلى الأرض التي وعد الله بها أباهم إبراهيم ، أرض كنعان التي « تفيض لبناً وعسلاً » ، ليجتمع في أرض الميعاد كل ذرية إبراهيم فلا يبقى منهم نزول في أرض غريبة ، وليكون وعد الله حقاً على المؤمنين .

وقد قسمت الأرض على أسباط بني إسرائيل^(١) كما لو كانت أرض نتفاع يقيمون فيها ويزرعونها ويعيشون على خيرها ولم يكن لأى سبط منها حق على أرض غيره من الأسباط الآخرين ، بل إن التقسيم كان بقصد الانتجاع والاستقرار كما استقرت ذرية إبراهيم الآخرون في بقاع أخرى ، ولم يكن في هذا الانتجاع والاستقرار ما يعنى إقامة دولة أو ملك فقد عاشت إسرائيل عيشة قبلية حتى بعد أن اختاروا لأنفسهم ملوكاً من بينهم ، ولم يحدث أن ملكت إسرائيل كل أراضى كنعان أو الفلسطينيين ولم يتح للملك إسرائيل أن يمتد ليسع بعض هذه البقاع إلا في عهد داود سليمان فقد وصل ملك داود إلى دمشق وعقد معاهدة صداقة مع حيرام ملك صور . وقبل أن ينتهى عهد سليمان أخذ ملكه في التقلص وعادت البلاد إلى أهلها وظل ملك إسرائيل يتهاوى حتى لم يبق من مملكة سليمان إلا بضعة مئات من الأميال المربعة حول بيت المقدس استولى عليها البابليون عام ٥٨٦ ق. م .

فصعد إسرائيل إلى أرض كنعان كان إتماماً لوعده الرب حتى تجتمع ذرية إبراهيم في صعيد واحد من أرض الميعاد وليكون لإسرائيل ما كان لأبناء عمومته من نصيب في الأرض المقدسة . وليس هناك ما يدعو إلى احتمال الظن بأن الصعود ببني إسرائيل إلى أرض كنعان كان حقاً لهم بالاختيار والتميز والتفضيل ، وإنما كان حقاً لهم للخلاص من ربة فرعون واسترقاق المصريين وللمساواة بأبناء عمومته الذين استقروا ببعض تلك البقاع من قبل ، لذلك حذر الرب إسرائيل في صعودها إلى أرض كنعان من التعرض لأرض سعيير التى يسكنها أبناء عمهم عيسو ولأرض مؤاب التى اعطاها الرب لبني لوط^(٢) . ولم يعرض التحذير لأراضى الإسماعيليين

(١) يشوع من ١٣ إلى ٢٣ .

(٢) تثنية : ٤ - ٢٥ .

فقد كان مسارهم بعيداً عنها ، مما يؤيد أن الأرض كانت للانتفاع لا لإقامة دولة أو ملك ، فلو كانت الأرض لإقامة دولة أو ملك لما قسمت من قبل على أبناء إبراهيم ولما قسمت أرض إسرائيل بين أسباطهم ، وحين قام ملك إسرائيل واختاروا من بينهم ملكاً كان ذلك منهم بقصد التشبه بغيرهم من الشعوب الأخرى^(١) وكان ملك إسرائيل حتى في عهد داود وسليمان أشبه بزعيم قبيلة منه بملك على أمة .

وتقصّ التوراة أن ملك إسرائيل خرج من بني سليمان عقاباً له على معصية الرب ، ولم يبق لرحبعام بن سليمان غير سبط واحد من أسباط إسرائيل هو سبط يهوذا يملك عليه في أورشليم ، أما بقية أسباط إسرائيل فملك الرب عليها يربعام عبد سليمان^(٢) . وخرج كل من رحبعام ويربعام على مشيئة الرب وعبدوا الأوثان .

« وأما رحبعام بن سليمان فملك في يهوذا . وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبع عشرة سنة في أورشليم المدينة التي اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل . واسم أمه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آبائهم بخطاياهم التي أخطئوا بها . وبنوهم أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسوارى على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء . وكان أيضاً مابونون في الأرض . فعملوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل^(٣) .

(١) صموئيل الأول ٢ : ٤ - ٦ .

(٢) الملوك الأول ١١ : ٢٦ - ٤٣ .

(٣) الملوك الأول ١٤ : ٢١ - ٢٤ .

وحاق بإسرائيل ما حاق بيهودا بعد أن ضلّوا وضلّهم يربعام
 « ويضرب الرب إسرائيل كاهتزاز القصب في الماء ويستأصل إسرائيل عن
 هذه الأرض الصالحة التي أعطاه لآبائهم ويبددهم إلى عبر النهر لأنهم
 عملوا سوارهم وأغاظوا الرب . ويدفع إسرائيل من أجل يربعام الذي
 أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ^(١) .

ويؤيد انقسام إسرائيل إلى مملكتين ، حقيقة ما يعنيه الوعد الإلهي
 لإبراهيم بأرض الميعاد ، فلو أن الوعد كان لإسرائيل وحدها دون ذرية
 إبراهيم لما أراد الله لبني إسرائيل أن يتفرّقوا فيكون منهم عشرة أسباط في
 مملكة إسرائيل أو سمارايا أو السامرة وسبط وبعض السبط في يهوذا ،
 ولما أراد الله أن تقع الحرب وتمتد بين المملكتين حتى يقضى عليهما واحدة
 بعد الأخرى ، ولما أراد الله أن يقضى على هذه الأسباط العشرة فلا يقصّ
 التاريخ عنها خبراً بعد ذلك ، فقد شتّهم سرجون الأشوري بعد سقوط
 السامرة عام ٧٢١ ق.م وحمل يهود السامرة أو الإسرائيليين إلى بقاع
 شتى من مملكته ونقل إليها غيرهم ولم تعد السامرة إلّا ذكرى عابرة في
 تاريخ اليهودية ، أما يهوذا فقد غزاها نبوخذنصر البابلي عام ٥٨٦ ق.م .
 وحمل اليهود سبابا إلى بابل وخرّب الهيكل فلم يذره إلّا حطاماً وأطلالاً ولم
 تستطع المملكتان حتى وهما في أوج عزّهما أن تستوليا على كل فلسطين^(٢) .

وكان ذلك ختام ما كان لإسرائيل من نصيب في الوعد الإلهي لإبراهيم
 كما يقصّ علينا تاريخهم وإن ظلّ حلم العودة إلى أرض الميعاد يراودهم ،
 إلّا أنه كان حلماً شابته عواطف هي خليط من التعصب العنصري والقومي

(١) الملوك الأول ١٤ : ١٥ - ١٦ .

(٢) جواد على : ج ٢ ص ٣٦٠ .

والديني نمتها الغربية وأذكأها ذلّ السبى ومرارة الاستعباد وترانيم الشعراء .
 وظهرت ترنيمة لشاعر مجهول بقيت في الأبد تلهب عواطفهم المكبوتة
 وتورى حمى قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهن للبشرية جمعاء وكانت في
 عذوبتها وعمقها رجع الصدى لنفوسهم الكليمة فظلت فكرة الدولة
 اليهودية وحلم العودة إلى أرض الميعاد حيّة في ترنيمة هذا المزمور
 كما يقول مؤلف كتاب « ثمن إسرائيل »^(١) .

« على أنهار بابل جلسنا ، وبكىنا عندما تذكرنا صهيون »
 « على الصفصاف في وسطها علقنا أعودنا ، لأنه هناك »
 « سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا »
 « فرحا قائلين : رغوا لنا من ترنيمات صهيون »
 « كيف نرم ترنيمة الرب في أرض غريبة »
 « إن نسينك يا أورشليم تنسى يميني »^(٢) .

ويتعلّل بنو إسرائيل في العودة إلى أرض الميعاد بحلم نبيّ من أنبيائهم
 يصوّر إسرائيل يعود مطهراً وقد خلص من دنسه وأرجاسه . ففى حزقيال
 « هكذا قال السيد الرب . هأنذا آخذ بنى إسرائيل من بين الأمم التى
 ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم إلى أرضهم . وأصيرهم أمة
 واحدة على الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون ملكاً عليهم
 كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين . ولا يتنجسون
 بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أخلصهم من كل
 مساكنهم التى فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لى شعباً وأنا أكون لهم
 إلهاً »^(٣) .

Alfred Lilienthal : C. I.P.I (١)

(٢) المزامير ١٣٧ : ١ - ٤ .

(٣) حزقيال ٣٧ : ٢١ - ٢٣ .

ويلج عليهم الحلم فيتخيّلون إله إسرائيل وقد عاد بهم إلى أورشليم المدينة المقدسة ، بفرحة النصر ومثوبة الخلاص ، كما في أشعيا « استيقظي استيقظي البسي عزك يا صهيون البسي ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك فيها بعد أغلف ولا نجس . انتفضي من التراب قومي واجلسي يا أورشليم انحلي من ربط عنتك أيتها المسبية ابنة صهيون . فإنه هكذا قال الرب مجانا بعتم وبلا فضة تفكون » ثم يقول « تطهروا يا حاملي آنية الرب . لأنكم تخرجون بالعجلة ولا تذهبون هارين . لأن الرب سائر أمامكم وإله إسرائيل يجمع ساقتكم ^(١) »

وفي أرميا « وأنت فلا تخف يا عبدي يعقوب ولا ترتعب يا إسرائيل لأنني هاأنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض سبيهم فيرجع يعقوب ويطمئن ويستريح ولا يخيف . أما أنت يا عبدي يعقوب فلا تخف لأنني أنا معك لأنني أفنى كل الأمم الذين بددتك إليهم . أما أنت فلا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة ^(٢) » .

ويأملون في بعث المسيح المخلص الذي يفك أسارهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد فيراه أشعيا رجلاً أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار إسرائيل « لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً ومضروباً من الله ومذلولاً . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه ويجبره شفيئنا ^(٣) » ويراه زكريا ملكاً وديعاً عادلاً منصوراً يجيء راکباً على حمار وعلى جحش ابن أتان فيقول « ابتهجي جدا يا ابنة

(١) أشعيا ٥٢ : ١ - ٣ ، ١١ - ١٢ .

(٢) أرميا ٤٦ : ٢٧ - ٢٨ .

(٣) أشعيا ٥٣ : ٤ - ٦ .

صهيون يابنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان . وأقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب . ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . وأنت أيضاً فإني بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء . أرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرعاء . اليوم أيضاً أصرح أنى أرد عليك ضعفين^(١) » ويتخيله حزقيال ملكا من نسل داود « وداود عبدى يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها . ويسكنون فى الأرض التى أعطيت عبدى يعقوب إياها التى سكنها آبائكم ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيتهم إلى الأبد وعبدى داود رئيس عليهم إلى الأبد . وأقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهدا مؤبدا وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم إلى الأبد . ويكون مسكنى فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس إسرائيل إذ يكون مقدسى فى وسطهم إلى الأبد^(٢) .

ولا نستطيع أن نرقى بهذه الأحلام والأمانى إلى مقام العهد الإلهى لإبراهيم أو الوعود المقدسة لإسحق ويعقوب وموسى صلوات الله عليهم فقد كانت النبوة فى إسرائيل أمراً مألوفاً وكان أنبياء إسرائيل كقديسي المسيحية وفقهاء الإسلام يتميزون بالصلاح والتقوى والاجتهاد فتارة ينكشف عنهم الحجاب كبعض المتصوفة فيلهمون الصواب أو تغلق قلوبهم فيضل تفكيرهم ويخطئ تقديرهم . وقد أشار العهد القديم إليهم ففى التثنية على لسان الرب إلى موسى يقول : « أقيم لهم نبيا من وسط

(١) زكريا ٩ : ٩ - ١٢ .

(٢) حزقيال ٣٧ : ٢٤ - ٢٨ .

إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه . وأما النبي الذي يظفي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي . وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب . فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصرف فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تحف منه^(١) » ومعنى هذا أن النبوة كانت أمراً مألوفاً في إسرائيل ليحفظ هؤلاء الأنبياء شعائر الرب وهم في هذه الصورة أشبه بفقهاء الإسلام أو بعض المتصوفة والنساك من أولياء الله المسلمين أو قديسي المسيحية ، وقد قال صلوات الله عليه : « علماء أمتي كأنيباء بني إسرائيل^(٢) » .

ومصادقي ما يقول أنبياء إسرائيل صدق قولهم ومعنى ذلك أن كلامهم ليس حجة ولا يمكن أن يرقى إلى قدر العهود أو الوعود المقدسة ولا يعدو كونه حلاً جميلاً أو أمنية عذبة لم تتحقق ، ومادامت لم تتحقق فهي ليست من كلام الرب كما جاء في العهد القديم . أما إذا قال البعض إن بعض هذه النبوءات قد تحققت بعودة اليهود من الأسر البابلي إلى أورشليم وبناء المعبد من جديد فليس في هذا ما يدل على تكرار العودة أو أن لإسرائيل عودة أخرى إلى أرض الميعاد يحققها الرب ويرعاها فلم يشر الأنبياء إلى عودة أخرى غير العودة من الأسر البابلي والنبوة لا تتكرر أكثر من مرة^(٣) .

(١) تنبيه ١٨ : ١٨ - ٢٣ .

(٢) راجع عبقرية المسيح للعقاد ص ١٥ - ١٦ .

(٣) بروفيسور جيلوم : الصهيونية والتوراة ص ٨ .

أما الوعد الإلهي لإبراهيم فقد تحقّق في المسيحية وفي الإسلام وكان
فيها ختام النبوة ومصدق العهد الإلهي كما ندلّل عليها في الفصول
التالية .